السرد للمستقبل .. الزمن كلحظة تحول
موقع المهنة والنوع الاجتماعي في التطوير المهني للمعلمات

مالك الريماوي

مدخل: في الرؤيا

«لا يمكننا أن نُعفى من دورنا في التاريخ، لأننا لا نستطيع أن نعرف أننا كنا على صواب مقدماً»،[1] لذلك كتب البشر واخترعوا فكرة الكتابة، «لأننا مطالبون بالاكتشاف وإعادة الاكتشاف الدائمين للممكن، وللذي لم يتم تمثيله بعد»،[2] فالممكن يكمن فيما حدث ومضى، ممكن تحقق وتم طمره في ركام الزمن، وفي بنية الذاكرات الفردية وضمن عقلها اللاوعي، أحداث عبرت بما فيها من ممكنات، وممكنات حاضرة لم تمثل بعد، وأخرى قادمة لكن لن تتحقق إلا على أرض من الكتابة والاكتشاف والتأمل، فالبحث في الماضي والانتباه للحاضر شرطان ضروريان للانتباه للآتي، ولالتقاط الرؤى التي يحملها فيه.

فكل إنسان يملك تجربة؛ تجربة معاشة محملة بالرؤى ومشبعة بالخبرة والحكمة، كتاب ما متضمن في وعي الشخص، مكتوب في جسده على شكل خريطة مرسومة بلغة الفعل، وملون بألوان المعرفة والقيم، خريطة جسدية تمثل قصة حياتية تم تشفيرها وترميزها على شكل ذاتية اجتماعية، تاريخ اجتماعي مشخصن، ومبني ضمن ذاتية فردية، من هنا تأتي الكتابة السردية التي تكتبها المعلمات لفك الشيفرة مرة أخرى، وإطلاق الأفكار، وإحياء الأحداث، وتحرير الأصوات المكبوتة، تلك خطورة الكتابة وشرعية حضورها معاً، لماذا نعمل مع المعلمات لكي يكتبن قصصهن؟

الكتابة فن تشريع الخطر

للجواب عن سؤال لماذا تكتب المعلمات؟ سأتطرق إلى من هن المعلمات اللواتي ننشر قصصهن اليوم في هذا العدد، في هذه المقدمة التحليلية سأركز على خمس قصص، لخمس معلمات من مدرسة الشيخة فاطمة، خمس معلمات يشتركن في ميزات بعضها عام مثل كونهن معلمات؛ أي من نوع اجتماعي محدد (إناث)، ومن مهنة محددة هي مهنة التعليم في المدارس، وميزات خاصة كونهن من المدرسة نفسها (مدرسة الشيخة فاطمة)، ويشتركن في مبادرة واحدة وهي مبادرة العمل على استكمال تطورهن المهني بشكل جماعي ضمن برنامج التعلم عبر الشروع، كبرنامج تكون مهني في مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، وهناك ميزة ستظهر أثناء التحليل؛ أنهن ومع كونهن من أجيال متقاربة جداً، فإن بعضهن قد علم الأخريات، وفي المدرسة نفسها، ولتكثيف الفكرة ومفصلتها نقول إن الكتابة هنا تشكل:

- قصص تعبر عن تاريخ مجتمع وثقافة في السنوات الثلاثين الماضية (وثائق تاريخية ثقافية).
- قصة مدرسة متكاملة وفي سياق تاريخي (وثيقة فردية على واقع المؤسسة وسياساتها).
- وثيقة مهمة لقراءة (النوع الاجتماعي): كيف تتشكل النساء كنوع اجتماعي في المجتمع الفلسطيني (مادة مهمة لعلم اجتماع النوع).
- قصص عن مهنة (مهنة التعليم)، وبالتالي هي (مادة للمعرفة البيداغوجية والفلسفية).
- شهادات فردية وشخصية على واقع عام، وبالتالي فهي تأويلات وتفسيرات شخصية على واقع عام.

في المشروع: كتابة الماضي ضمن الحاضر وفاعليته

لكن أهم ما في هذه القصص، هو سياق تحققها، حيث كتبت في سياق مشروع؛ مشروع تكون مهني مبني على فكرة أن التطور المهني للمعلمة يتحقق عندما تشارك في تطوير ذاتها، عبر الانخراط في مشروع تعليمي عملي تطبيقي، تكون فيه فاعلةً من جهة، ومتأملة ومتبصرة فيه بمرافقة ومشاركة آخرين من جهة أخرى. المعلمات

انخرطن في مشروع تعليمي تعلمي على مستوى المدرسة، بني المشروع تحت منهاج وعنوان الصحة والغذاء، وتركز في مضمونه حول سؤال أنثروبولوجي اجتماعي بدلالاته وآفاقه: ماذا يأكل الفلسطينيون؟

تضمن المشروع العمل مع الطالبات في المشروع كعملية تعليمية تعلمية، وتحقق في مجموعة المعلمات على شكل لقاءات تخطيط مشترك، ثم تطبيق ثم لقاءات تأملية وتحليلية، لقاءات تخللتها قراءات ونقاشات ثقافية، فقد تمت قراءة مواد حول معني التكون المهني والممارسة التأملية، وتمت قراءة رواية «سيرة العقرب الذي يتصبب عرقاً» للروائي الفلسطيني أكرم مسلم كرواية فلسطينية، لتحليل المجتمع والثقافة والذاكرة، ودور الكتابة والخيال الأدبي في تمثيل الحقائق الاجتماعية، وإعادة إنتاجها بشكل فني جمالي.

الأطر الاجتماعية للتشكل الذاتي

معلمات مدرسة الشيخة فاطمة، خمس معلمات يكتبن قصتهن، وهي كما يلي «**سنكون يوماً ما نريد**» للمعلمة رنا فارس، و«**بين سفيرتين: تعلُّم بلا حدود**» للمعلمة آلاء رياض حميدة، و«**بين المحامية ومعلمة الرياضة: أحلام تصطدم بقسوة الواقع**» للمعلمة هنادي أحمد قعدان، و«**وراء كل طالب متميز معلم متميز**» للمعلمة منال الزبن، و«**محطات من حياتي**» للمعلمة نوف الزبن.

وستحاول هذه القراءة النظر في العناوين والمتون للكشف عن غايات الكتابة السردية ومضامينها، كونها كتابة تأتي ضمن مشروع للتطوير المهني يشرف عليه مركز القطان بوصفه مركزاً تربوياً، ولكونهن معلمات يكتب قصصهن ضمن مهمة تطويرية بغيتها استكشاف وكشف آليات تشكل المهنة ودلالاتها وأفق تحققها المستقبلي.

فالعنوان «سنكون ما نريد»، يهجس منذ البداية بالمستقبل وكينونته (سنكون) وتربط هذا المستقبل بالإرادة (ما نريد). وسنحاول أن نعود إلى النص لنكشف ونكتشف تاريخ وشروط تشكل هذه الكينونة وهذه الإرادة، وهذا ما يظهر أيضاً في العناوين الأخرى، فهي تعكس الانهمام بالعلاقة بين الواقع والأحلام، والأهم أن المعلمة تُؤشكل هذه العلاقة من البداية بوصفها علاقة تصادم، وهنا سنحاول البحث عن ماهية هذه الأحلام، وهذا الواقع، وسنبحث أهي أحلام المعلمات كأفراد، أم أحلام المهنة كمهنة تعليم، أم الأحلام بمهنة أخرى؟ وأي واقع هو المقصود: المهنة نفسها كواقع صادم، أم المهنة كحلم في تصادمه مع واقعه؟

لكن العناوين نفسها وفي صلتها بالمحتوى، تعكس علاقة الواقع بالحلم وتتجاوزها، باتجاه توضيح طبيعة هذه الأحلام، فعنوان «بين سفيرتين: تعلم بلا حدود»، يعكس ويقدم علاقة التصادم بين الحلم والواقع ضمن صيغة تداخلية عبر طرح العلاقة بين السفيرتين بوصفها علاقة تصادم، تتحقق عبر رحلة تعلم، ولتوضيح ما تقصده المعلمة نقتبس من نصها، حيث تقول:

«في طريقي إلى الجامعة، وأنا أستقل تلك السيارة ذات اللون البرتقالي، شرعت أرسم صورة الجامعة في مخيلتي،

الباحث مالك الريماوي خلال لقائه مع معلمات مدرسة الشيخة فاطمة من أجل العمل على تطوير قصصهن العام 2015.

حيث أني لم أرها من قبل، كنت أردد في نفسي: الحمد لله وصلت إلى ما أريد؛ إكمال دراستي الجامعية. بدأ مشواري، ...، سأكون ما أريد، أريد أن أكون سفيرة لفلسطين في الولايات المتحدة الأمريكية، لأنقل لهم ما نعاني وما نريد أن يكون في وطننا، نريد فلسطين الحرة، بلا احتلال ...».

فالسفيرة الأولى كما هو واضح من النص هي سفيرة لفلسطين، المعلمة تقدم ذلك كحلم في الطريق إلى التحقق، يتحقق ويصبح كينونة (سفيرة في الولايات المتحدة الأمريكية)، السفيرة هنا حلم وغاية، ولكنها وسيلة أيضاً، وسيلة لكشف ما نحيا من معاناة، وكشف المعاناة كطريقة من طرق السعي إلى الحرية. إذن، نحن أمام حلم مركب، حلم أكاديمي منشغل بنمط حياتي (حياة السفيرة) وبسؤال الوطن ومفهومه، انشغال يتقاطع فيه الشخصي بالمهني بالاجتماعي والسياسي.

وفي هذا السياق، سنركز التحليل على هذه الثيمة؛ ألا وهي علاقة أحلام المعلمات بواقعهن، من منطلق أن هذه الأحلام ذات صلة بالمهنة، فهي في الغالب أحلام مهنية، أحلام بمهن متعددة، أحلام مهنية تحملها المعلمات في فترات مرحلة المدرسة العليا والمرحلة الجامعية، أحلام تحملها معها إلى مهنتها الجديدة التي في الغالب لم تكن ضمن هذه الأحلام، فمهنة التعليم هنا هي مهنة وارثة، وهذا يمكّننا من فهم أعمق لهذه المهنة، فهي ليست مهنة الحلم ولا مهنة الاختيار، هي مهن وريثة لمهن متخيلة، ما يجعلنا أكثر انتباهاً إلى كيف تحمل متخيلات المهن السابقة؟ وكيف تنتج (المعلمة) مهنتها كامتداد للمهن السابقة المتخيلة؟ وكيف تنتج مهنة التعليم المحمولات المهنية السابقة المتخيلة وتدمجها في داخلها، وبخاصة أنها مهنة لم تكن ضمن هذه المهن، فمثلاً تقول المعلمة هنادي:

«كلنا حلمنا أحلاماً دافئة ...، حلمنا بالوصول إلى شيء معين حسب رغبتنا أو أفكارنا، لكن تتعدد الحواجز والظروف التي منعتنا من الوصول إليه، ومن هنا، لم أتخيل نفسي، في يوم من الأيام، أن أكون معلمة؛ وأي معلمة «معلمة للتربية الرياضية».

فالمعلمة هنادي لم تحلم يوماً أن تكون معلمة، أي معلمة؟ معلمة للتربية الرياضة؟ حسب تعبيرها مع اهتمامها بالتربية الرياضية وإيمانها بأهميتها، حيث تملك قدرات رياضية، وتؤمن بأهمية التربية الرياضية، حيث تقول:

«لقد درست وتعبت وتميزت بمدرستي، من أجل أن أكون شيئاً آخر غير الذي وصلت إليه الآن، مع أنني كنت حريصة على ألا تغيب عني أي بطولة من بطولات الرياضة المدرسية».

لكن هذا مع ذلك ليس حلمها. لماذا؟ سنرى بعد قليل أن ذلك يتعلق في جانب منه بالمعيار الاجتماعي، ولكنها -وهذا الأهم- هي ليست حلمها، حيث حلمت أن تكون محامية

«لقد حلمت أن أكون محامية، أدافع عن حقوق الناس، فلا أستطيع أن أرى الخطأ أمامي وأسكت. حلمت كباقي الطالبات في عمري، بالعدل وإعطاء كل ذي حق حقه. حلمت، وحلمت، ...».

وهذا ينطبق على المعلمات الخمس تقريباً، ما عدا معلمة واحدة اختارت التعليم كمهنة، مهنة الحلم ومهنة الواقع، أما المعلمات الأخريات فكما أن آلاء حلمت أن تكون سفيرة، فهنادي كانت تحلم أن تكون محامية، وأما رنا فارس فقد حلمت أن تكون مضيفة أو محامية أو سفيرة:

«حلمت كثيراً أن أكون مضيفة طيران، ولم أكن أدرك أنه لا توجد طائرات أو حتى مطارات، لربما هي أحلام طفولة تسبح في فضاءات لا حدود لها. لم تكن أحلامي مقيدة بسياسات أو عادات أو حتى جامعات. تنتقل الأحلام لنترك الفضاء وجماليته».

المعلمة التي تحلم أن تكون مضيفة طيران، تعترف أنها أطلقت لحلمها العنان ولم تقبل أن تؤطره بحدود الواقع والسياسة أو العادات، ولكنها -حسب تعبيرها- تهبط به:

«تهبط الطائرة بأحلامنا، وأتخيل وجودي أمام قاضٍ أقول له: سيدي القاضي كم حلمت بهذه الكلمات أن أدافع فيها عن مظلوم أو مظلومة».

وتستعيض عن المضيفة بالمحامية، ولكنها بعد أن تصطدم بالأرض

«تركنا الفضاء والطائرة وهبطنا إلى الأرض واصطدمنا بواقع المسافات. بعد اثني عشر عاماً من حمل الحقيبة، والاصطفاف في الطابور، والجلوس على مقاعد الدراسة، والالتزام بالقوانين، نركب السيارة ونخوض تجربة الجامعة. بدأت بدراسة متطلبات كلية الآداب، ومع البدء بمتطلبات العلوم السياسية، بدأت الأحلام تعاود كرتها ... لا بد أن أكون سفيرة،... درسنا واجتهدنا وتخرجنا لنصل إلى سوق العمل أو السفارة».

لكن الأحلام أخيراً تقف إما عند

«وزارة التربية والتعليم، لتصبح المخرج الوحيد، أو أن أكون عاطلة عن العمل».

هذه معلمة أخرى لم يكن التعليم حلمها، ولكنها تصبح معلمة ومعلمة تاريخ ... وكذلك المعلمة نوف فقد أحبت معلمات أثرن في حياتها كما تذكر وأصبحن مثالاً لها، مثالاً في العطاء

[لقد تلقيت تعليمي على أيدي معلمات يعتبرن مثالاً يحتذى به في العلم والتعليم،... تركن بصمة مؤثرة في حياتي، فكانتا قديرتين جداً]، ما جعلها تميل إلى أن تكون معلمة، ومعلمة تربية إسلامية بسبب إنسانية معلمة التربية الإسلامية وقدراتها وتعاملها مع الطالبات بطريقة مهنية، ولكنها عندما تصل الجامعة تنخرط

«في كلية التجارة والاقتصاد تخصص إدارة أعمال، علماً أن ميولي كانت تتجه نحو كلية الآداب، تخصص تربية إسلامية، لما كان لمعلمة التربية الإسلامية من أثر كبير في صقل شخصيتي، إلا أنه لسبب ما لم ألتحق بهذا التخصص، ووقع اختياري على دراسة إدارة الأعمال، وذلك لارتباط هذا التخصص بحياتنا اليومية والعملية والمعاملات الشخصية».

فمع أن المعلمة كانت تحمل ميولاً عاطفية للتدريس، ميول تعود إلى مشاعر الود لمعلمة سابقة، وإيماننا منها بأفكار العطاء والتعامل الأخلاقي، إلا أنها أيضاً تختار التخصص العملي، تختار إدارة الأعمال، وهي ترى فيها قدرة على تحقيق مبادئ العطاء والعمل الأخلاقي بشكل عملي وضمن علم الإدارة.

وحدها منال وضعت العلاقة في شكل مختلف لفظاً، ولكنه ليس بعيداً عن زميلاتها، فقد أطّرت قصتها وعنوانها من البداية بكونها علاقة معلمة وطالبة، وقد طرحت من البداية الحلم بوصفه حلماً بالتفوق، وفعلاً هذا كان حلمها، أن تكون متميزة، ذلك الحلم الذي تولد كرغبة قديمة، فقد حكم مشوارها المدرسي والتحصيلي بعلاقة غير ودية مع معلمة الطفولة.

تلك العلاقة التي بدأت بالكره، وهذا ما تقوله المعلمة:

«وهذا ما حصل معي تماماً، فبينما كنت في المدرسة، وتحديداً في الصف الثالث الابتدائي، كانت هناك معلمة اللغة الإنجليزية (ع. ش)، كنت أكرهها بكل ما تحمله الكلمة من معنى».

المعلمة تعود في سرد قصتها إلى الصف الثالث، وتنطق بلسان الطفلة ابنة الصف الثالث، وتقول «كنت أكرهها بكل ما تحمله الكلمة من معنى»، والسؤال الذي سيطر عليَّ وأحببت أن أطرحه: من هي هذه المعلمة؟ وما الذي كانت تفعله؟ وكان كفيلاً بإيصال طفلة إلى أن تكره معلمتها لهذه الدرجة؟

أظن أن إيصال طفلة لهذا الشكل من الكره يحتاج لمعلمة قد أبدعت في خلق فنون الشر، والتحكم والاستبداد، وفعلاً كان الجواب شافياً، فقد أضافت منال:

«فكم كانت هذه المعلمة متكبرة ومتعجرفة، تستخدم الوعيد والتهديد باستمرار، حيناً تهدد بالرسوب إلى الصفوف الأدنى، وحينا آخر بالإنذار للأهل، وحينا آخر بالوقوف والعقاب أمام جميع طالبات المدرسة».

فمن الواضح هنا كم لكلام المعلمة من تأثير في الطلاب وفي مشاعرهم، فالمعلمة تستخدم كلامها وأحياناً بشكل غير واعٍ، لكنها يجب أن ترى أن ما تقوله له تأثير الفعل، فهو تهديد مخيف ويُعني كثيراً للطالبات، فأن ترسِّب طالبة لصف أدنى، فالطالبة لن ترى فيه مجرد فعل غايته تخويفها أو إنذارها، بسبب كونه فعلاً غير قانوني ولا عملي وليس حقيقياً، فالطالبة سترى فيه قطعاً لمسيرتها ووسماً لها بالفشل، وبأنها أقل من زميلاتها، وكذلك التهديد بالأهل، فالمعلمة كأنها تهددها بتدمير صورتها العائلية، أو بالعقاب أمام طابور الصباح، فهو تدمير لصورتها المدرسية وأن تعيدها لصف أدنى هو تصغير لصورتها الداخلية، ولذلك فتهديدات تمس صورة الطفلة الاجتماعية بشقيها المدرسي والمنزلي، وتمثل تهديداً بوسمها بالفشل، فما كانت المعلمة تراه شكلاً تربوياً هو في حقيقته نوع من القتل أو الإعدام عبر التهديد، بتدمير وتشويه صورة الطفلة عن نفسها، وصورة الآخرين عنها، هذا خطر لأنها تهدد الطفلة في هويتها وصورتها ومستقبلها، إذن تستحق أن تُكره، لأنها تعبث بالطفلة وبمصيرها كله.

هذا خلق عندها حالة من الإحباط، تلك الحالة التي تم تجاوزها بفعل معلمة أخرى، وهذا ما ساعدها على اختيار التعليم كمهنة، لكنه لم يكن اختياراً فحسب، بل جعل منها الحلم، حلم يملك المعلمة كرغبة وكنظرية معاً، ما جعلها تختار أن تكون معلمة، وذلك بسبب

«تجربة أخرى، فهذه التجربة لا تفارق ذاكرتي، أشعر أنها كانت من الأسباب الدافعة لي إلى حب المدرسة، وبالتالي النجاح والتفوق، ... هذه التجربة كانت بطلتها معلمة اللغة العربية (أ.ي.) أذكر تلك المعلمة وضحكتها، كانت تعززني دائماً، وتمدحني كثيراً، لكي أجتهد أكثر فأكثر وأكون عند حسن ظنها».

معلمة أخرى وأسلوب مختلف، يجعل المعلمة منال تربط الحلم كله بالتميز والنجاح، ويدفعها إلى ربط هذا الحلم بوجود معلمة كما وصفتها معلمة «تتضامن مع ضعفي»، معلمة تدفعني وتوجهني ... هذا الوضع تحقق في معلمة أخرى كانت الحلم، وساعدت منال على تحقيق حلمها؛ ألا وهو النجاح والتفوق والتساوي مع زميلاتها

الطالبات التي كانت المعلمة الأولى تميزهن عليها ... ما جعلها تختار التعليم كمهنة، وتأتي للمهنة وهي محملة بالمهنة، وحاملة لنظرية للمهنة، نظرية خاصة بها قائمة على أنه للوصول لطالب متميز، نحتاج إلى معلم متميز وعلاقة تربوية قوامها الرئيس المحبة.

يمكننا في هذا السياق ملاحظة كيف تبنى التوجهات المهنية، وكيف تتشكل اجتماعياً، وأن الاختيارات المهنية ليست اختيارات شخصية وغير خاضعة للميول والرغبات الشخصية، فالمعلمات الخمس لم يخترن مهنة التعليم بشكل واعٍ، بل هي مهنة فرضت عليهن، ثلاث منهن كان قبولها نتيجة عدمٍ قدرتهن على تحقيق المهنة الحلم، والرابعة رأت فيها حلماً رومانسياً، لكنه ليس حلاً واقعياً، فاختارت المحاسبة وإدارة الأعمال كعلم له آفاق عملية ومستقبلية، وحتى الخامسة التي اختارت التدريس حلماً ومهنة، فقد تشكل ذلك في سياقات طفولية، وفي صراعات مع مصائر تفرض عليها، مصائر جعلتها تفكر خارج رغباتها وميولها الحقيقية، حيث طريقة معلمتها الأولى جعلتها عرضة للتهديد والخوف من جهة، وضحية لواقع يقوم على التمييز من جهة أخرى، ما جعل خيارتها تتراوح بين «أن تحولني هذه المعلمة إلى فاشلة أو أن أكون ناجحة»، وهذا سياق من القهر حرمها أصلا من بناء خياراتها في جو يتسم بالأمان والطمأنينة.

وهذا يمكن أن يدلل على أن الواقع المهني ليس هو واقع فردي شخصي، وليس هو موضوع فردي، بل هو موضوع سياسي اجتماعي، فالاختيارات المهنية لا يمكن تفسيرها بناء على «الرغبات والميول الفردية»، أو من منطلق الكفاءات والقدرات، بل تحتاج إلى عمليات تفسير تنطلق من أنه لا يمكن فهم سيرورة تشكلنا المهني والاجتماعي والشخصي، إلا ضمن أدوار السياق والعلاقات الاجتماعية وما نتعرض له من عمليات صوغ ثقافي وسياساتي ومؤسساتي، عملية صوغ محكومة بعوامل غير شخصية، عوامل متعددة سنحاول أن نكشف عن بعضها، وسنرى كيف تتشكل هذه الاختيارات في علاقتها بالنوع الاجتماعي من جهة، وبالواقع الاجتماعي المؤسساتي من جهة ثانية.

في المهنة والنوع الاجتماعي

فقد اعتمدت هذه القراءة على تحليل كتابة المعلمات بغية الكشف عن كيفية تشكل المعلمة، كمهنة، وكنوع اجتماعي، ضمن السياق الثقافي والعلاقات الاجتماعية السائدة التي تعكس القوى والقواعد الاجتماعية كآليات تشكيل وتحكم من جهة، وتعكس أساليب الأفراد واستراتيجياتهم في المواجهة والمناورة والتكيف من جهة أخرى، ما يعني قراءة القصص كشهادات فردية على واقع اجتماعي وتاريخ ثقافي لتحليل موقع كل من المجتمع كسياق، والمعلمة كفرد فاعل بالنسبة للآخر، موقع المجتمع في المعلمة، وموقع المعلمة في المجتمع.

وقد رأينا أن معظم المعلمات قد اصطدم حلمها المهني بحدود الواقع، واقع الجامعات والتخصصات، وواقع النوع الاجتماعي، وبنية المجتمع والنظام المدرسي، فالمعلمات سردن تاريخهن على شكل قصة تعكس لحظة الزمن الأكثر توهجاً، لحظة تشابك فيها بكل عنفوان حلم الماضي البعيد مع حلم الحاضر المعاش في المشروع، معلمات يكتبن تاريخهن القديم مع النظام ومع زمن النظام الاجتماعي، فمعلمة التاريخ رنا فارس، وهي تعيد تحقيب حياتها إلى حقب حسب تعبيرها:

> «حكايتي تبدأ عندما أشاهد صوراً في مخيلتي تمر كشريط سينمائي، تبدأ مع الحاضر وتمر عبر حقب تاريخية مضت ... تعجبني كلمة «حقبة»، وبخاصة أنني أستخدمها كثيراً في مجال التاريخ».

وأن المعلمة تستخدم مصطلحات سينمائية وتاريخية على شكل كنايات، وكأنها ترى حياتها عن مسافة منها، تنظر إليها وكأنها شريط سينمائي، وكأنها على شكل حقب تاريخية، ترى فيها فترات ذات أمد طويل، زمن طويل يعكس ما فيها من خبرة وقمع ومقاومة، معلمة التاريخ تبدأ قصتها بصراعها مع النظام بسبب تاريخ ميلادها.

تقول المعلمة:

> «فالتاريخ يحكم، وأحياناً يحكم بطريقة عشوائية، فتاريخ ميلادي يمنعني من بدء مشواري التعليمي في مدارس الحكومة، لأنها ترتبط بتواريخ محددة لا يجوز تخطيها. لم أكن أفهم بعد عندما قالت مديرة المدرسة لوالدتي: لا أستطيع تسجيلها».

معلمة التاريخ لم تفهم أن النظام يرفضها بسبب تاريخ ميلادها، فالطفلة التي ترى العالم من منظور قيمي مختلف، منظور يقوم على التمايز وليس على التمييز

> «ولكني فرحت أنني لست كالبقية، سأدخل الصف الأول في مدرسة بعيدة عن قريتي، لست كالبقية فسأركب الحافلة لأصل مدرستي (...)، فسأدرس اللغة الإنجليزية والفرنسية، فأنا لست كبقية صديقاتي».

فالطفلة التي ترى تميزها في المدرسة البعيدة، مدرسة ستسمع فيها أصوات أجراس الكنسية، وتركب الحافلة للوصول لها، وستتعلم اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وستزامل أطفالاً فيهم الكثير من التنوع من حيث الديانة والنوع الاجتماعي، هذه الطفلة التي لم تفهم كيف ترفض بسبب تاريخ ميلادها ستبدأ بالتعرف على التأطيرات الاجتماعية لحياتنا كبشر في مجتمع، حيث التأطير يبدأ

من الاسم، ومن تاريخ الميلاد، هل يمكن أن ترفض أو تقبل بسبب اسمك أو جسمك أو تاريخ ميلادك؟

وكذلك المعلمة نوف، فقد سردت قصتها تحت عنوان «محطات من حياتي»، وكأنها ترى حياتها محطات، فتقول:

> «نمر خلال حياتنا بمحطات رئيسية، تبنى فيها الشخصية والذات، لتبدأ بتكوين الصورة الواضحة لكينونتنا، تلك التي تشكلت قطعة فوق قطعة، لتكوين تلك الصورة الواضحة الكاملة لشخصيتنا».

فالشخصية الكاملة هي شخصية مركبة من قطع، وهذه القطع هي نتاج التنقل من محطة إلى أخرى، وهي نتاج صعود ونزول، وهذا يؤشر على معلمات ترى الجانب الاجتماعي في الفردي، وتشخص واقع الشخصية المركبة، مركبة من قطع، شخصية نتاج محطات وتنقلات، والتنقلات هي أكثر من كونها انتقالاً من لحظة إلى أخرى، أو من مكان إلى آخر، فهي في جوهرها عمليات تحول، وهذا ما تراه رنا في تنقلاتها التي فرضها عليها النظام المدرسي.

فالمعلمة رنا التي تبدأ مسيرتها كطالبة في مدرسة خاصة، لأن النظام المدرسي الرسمي يرى التواريخ ولا يرى الرغبة، يحكم على النمو والنضج بالوثائق وليس من خلال القدرات والاستعدادات، المعلمة التي قهرت بسبب تاريخ ميلادها ستقهر في حلمها، فقد كتب عليها بعد خمس سنوات العودة إلى مدرسة قريتها بسبب (الوضع الاقتصادي للأسرة)، ولأن النظام الرسمي يقبلك عندما تنتقل من مدرسة خاصة «ما رأت فيه المعلمة الطرق الالتفافية» التي يلتف بها النظام على نفسه عبر اللعب بالقاعدة والاستثناء، فالاستثناء هو قوة النظام من خلال قدرته على اختراق نفسه حين يريد -عبر الاستثناء- أن يقوي نفسه ويؤكد سطوته.

الانتقال نفسه من المدرسة الخاصة إلى مدرسة القرية لم ترَ فيه عودة أو انتصاراً، لأنه عودة من

> «مدرسة ...، في ساحاتها تتنوع الأديان -مسلم ومسيحي- لا فرق بينهما، يجلسون على طاولة واحدة في صف واحد، يتبادلون الحكايات والضحكات أو تمارين الصباح. أمضيت خمس سنوات، ولكنها مضت وكأنها سنة. لم تكن مدرستي كبقية المدارس، لربما لتميزها بمعاملة مختلفة ... أو لكونها أصبحت جزءاً من تاريخي وحكاياتي ... لا أعلم!».

وتصف المدرسة الحكومية الرسمية

> «بمدرسة أخرى هي المدرسة الرسمية، الحزم والهدوء! لربما خوفاً لا بل هو الخوف أكيد، فالعقوبات كانت تسبق الجرم، وعن أي جرم نتحدث، إما أن يكون طلب ممحاة أو مسطرة، ... الصف أشبه بذلك الأسر، أما غرفة المعلمات فهي تلك القنبلة الموقوتة بوصولك إليها لا تعلم ماذا ستكون النتائج. المعلمة ذلك الإمبراطور الذي لا تستطيع الوصول إليه. ... ففي أحد الأيام، رفضنا الدخول إلى الصفوف

جانب من ورشة الثقافة السينمائية مع مركز القطان للبحث والتطوير التربوي 2015.

أنا ومجموعة من الطالبات، وذلك لإحياء ذكرى استشهاد القائد خليل الوزير. لم أشعر يومها سوى بعصي تجاوزت العشر، وحرماني من الإلقاء عبر الإذاعة المدرسية، لأننا -وبحسب مفاهيمهم- نقوم بعمليه تحريض. قرارات حاسمة لا مجال لتغييرها. ننهي بعض الصفوف ونتنقل بين مدارس الحكومة لعدم وجود صفوف لإنهاء المراحل التعليمية في المدرسة نفسها، انتقال لا يعني أنك غيرت فقط الغرفة والأصدقاء، وإنما غيرت أحلامك».

المعلمة تروي قصتها، ولكنها تعيد قراءة تشكلها في الحقل المدرسي، حقل تربوي يعيد تشكيلها ككيان طيع خائف، فالحركة جرم، والكلمة جرم، ولكن الجريمة الكبرى هي الموقف، أن يكون لك رأي وتعبر عنه بالموقف، هذا جريمة تستحق الضرب، الضرب والحرمان، إنه النظام الذي يمارس العنف على الجسد لمنعه من الفعل وقمع صوته، النظام يعيد تشكيل المعلمة عندما كانت طفلة، يعيد تشكيلها عبر تشكيل فعلها وسلوكها وكلامها وتفكيرها، يحدد لها حريتها في الحركة، فالوصول إلى غرفة المعلمات جريمة، يدخل التراتبية لقيمها، المعلمة إمبراطور، النظام الذي يحدد هيمنته عبر خرائط تحدد الحركة والفعل، وعبر منظومات عمل تحدد القيم والمعايير، يعيد تشكيل علاقاتنا وأحلامنا عبر استمراريته وعبر انقطاعاته، فالطفلة عليها أن تنتقل كل خمس سنوات، الانتقال الذي رأت فيه قطعاً للذاكرة والنمو والحلم معاً... .

فالمعلمة التي عانت من النظام، ومما فرضه عليها من عقوبات وتنقلات، والذي حرمها من أحلامها التي تأطرت بالواقع الاجتماعي وبحدوده، وضيق أفق الحرية والاختيارات، فحرمها من أن تكون مضيفة أو محامية أو سفيرة، وأكثر من ذلك، فقد قبلت أن تكون معلمة تاريخ، وتقدمت لمكتب التربية وحصلت على كتاب تعيين كمعلمة تاريخ في مدرسة ذكور، وقام مدير المدرسة بمنعها من أن تستلم وظيفتها.

«دخلت إلى المدرسة وكتابي بيميني، فقد حصلت على وظيفة. أمرٌ في ساحة المدرسة وفي عقلي تدور الأفكار «سفارة، معلمة، وظيفة، عاطل عن العمل»، تناقضات بدأت تتعارك في عقلي لأصل إلى غرفة الإدارة، وأقابل مدير المدرسة، وبطريقة استفزازية، تم رفضي من مدير المدرسة، ليس لأني لا أصلح، ولكن حسب معاييره أن وجود معلمة غير ملتزمة باللباس الشرعي لا مكان لها في مدرسته. قام باتصاله وطلب مني العودة إلى مديرية التربية لأنه لا يوجد لديه شاغر لي، على الرغم من معرفتي بوجود شاغر لمعلم تاريخ. كان هذا أول قهر لي في العملية التعليمية، فعلى الرغم من ردي عليه أن اللباس الشرعي لا يعكس ماهية الفرد، ولا تستطيع تقييمي من خلال لباسي، فإن صوته كان مسموعاً أكثر مني».

فالمعلمة التي واجهت كل أشكال القمع والتنميط، وحسب معايير اجتماعية شكلية، تتعلق بتاريخ الميلاد واللباس الشخصي، وكتبت أنها كانت في مدرستها الأولى فرحة بما فيها من حرية وتنوع ديني وثقافي، إلا أنه عندما قابلت طالبة من طالباتها ألا وهي آلاء زميلتها الآن، أخبرتها الطالبة أنها تحمل حلمها السابق، وأنها تحلم بأن تصبح سفيرة لفلسطين في الولايات المتحدة. فما هو المتوقع من معلمة ترى حلمها يرسم بيد طالبة لها كأفق للمستقبل؟

معلمات من زمن الأحلام

فكيف ستتصرف المعلمة التي كانت تحلم بأن تكون سفيرة أو مضيفة أو محامية وهي اليوم معلمة تقف أمام طالبة من طالباتها، ليست مجرد طالبة بل طالبة تجسد أمامها أحلامها المجهضة؟ كيف يتصرف الناس عندما يلتقون مع أحلامهم الماضية، بعد أن أصبحت منتهية ومستحيلة؟ لكنها الآن حية في آخرين، طالبة شابة لا تعترف بعدٌ بحدود الواقع ومعاييره الثقافية والاجتماعية، ولم تصطدم بعدٌ بحدود الأنظمة وسياسات المؤسسة، لا تعرف معاني المعايير ولا حدود نوعها الاجتماعي، ولا الشروط التي تحم تشكله.

طالبة لا تعرف بعدٌ شروط التشكل والاختيارات المهنية، لأنها تؤمن بالعدل والحرية والحق في الحلم، كيف يمكن للمعلمة رنا أن تتصرف، هل ترى في حلم آلاء حلمها السابق، وترى في آلاء مستقبل حلمها فتقف لجوراها وتساندها وتحميها بوصفها الإمكان الجديد لاستمرار الحلم، أم سترى فيها ضحية جديدة، ترى معاناتها؟

هل ستحمي الحلم وحق آلاء، حقها في الحلم، أم ستحاول أن تحمي آلاء من المعاناة التي مرت بها؟ ما يعني أنها ستحاول أن تحميها من الحلم نفسه؟

ما تقوله آلاء في وصف موقف زميلتها التي كانت معلمتها يكفي لنرى كيف تصرفت المعلمة، وما يعنينا هنا في هذا المقام هو معاني التصرف ودلالاته. تقول آلاء:

«وتشبثت بحبل الأمل الذي يؤهلني لما أريد، أريد أن أكون سفيرة، كنت أقولها لمعلماتي مراراً وتكراراً، كن يبتسمن تارة ويعلقن تارة أخرى، أذكر حين قالت معلمتي: «لا .... سفيرة! وين مفكرة حالك؟ وين راح المجتمع ... وأهلك...، ابحثي عن وظيفة أسهل».

إذن، واضح جواب المعلمة، إنها تحكي قصة حلمها أكثر مما تحكي لطالبتها: سفيرة إيه؟ .. أين تفكرين نفسك؟

المعلمة تتساءل حول الحلم وجوهره، وكأنها تسأل هل يحق لطالبة أن تحلم أن تكون سفيرة مع أنه كان حلمها يوماً ما؟ هل هو التراجع والتنازل؟ أم أن هذا ليس صوتها بل صوت النظام الذي قهرها وثبت فيها صوته وصار يحكي من داخلها؟

وتذكرها بالموقع، «أين تفكرين نفسك؟»، تضع الحلم في أطر الموقع في حدود المجتمع والسياسة والنظام والمؤسسة، وتؤكد ذلك كلاماً، وتحدد حدود الحلم وحدود التشكل الوظيفي بالمجتمع، والأهل، والمؤسسة، وسياسات التوظيف، وتحكي عن وظيفة أسهل.

المعايير التي ذوتت في المعلمة، القهر الذي مورس عليها، لم يسقط حلمها فقط، ولم يجعلها تقبل بالوظيفة المتاحة بدل البطالة، بل اقتحم معاييرها وأصبح جزءاً منها، وجعلها هي نفسها تقف موقفه مما كان قبل سنوات حلمها.

وهذا يجعلنا نطرح فكرة التفاعل والتشارط الجدلي بين المهنة والنوع الاجتماعي في تشكل المعلمة المرأة كمهنة وكنوع اجتماعي، فكلاهما؛ أي المهنة والنوع الاجتماعي، يمكن تعريفها بوصفها «نسقاً من الممارسات الاجتماعية»، ممارسات اجتماعية تعكس السياق الاجتماعي الثقافي من جهة، وتعكس قدرات واستعدادات الأفراد من جهة أخرى، تعكسها في سياق تفاعلها وتحققها على شكل موقف، وأحداث ودراما اجتماعية كاملة.

ونرى في هذا السياق، أن كلاً من النوع والمهنة يشتركان في كونهما نسقاً من الممارسات والاستعدادات؛ أي نوع من البناء الاجتماعي المذوَّت على شكل خطاطات قبول واعتقاد وخطاطات عمل وممارسة، ولكنهما أيضاً يشتركان في مجموعة من المواصفات والخصيصات البنيوية والظاهرية، فكلتاهما تتصف أولاً: بكونها عملية أكثر من كونها حالة ثابتة، حيث تنتج ويعاد إنتاجها بصورة دائمة، وثانياً: فهما ظاهرة متعددة المستويات، حيث كل منهما تمثل في حالات فردية، ولكن لا يقتصر وجودها الاجتماعي على التحقق الفردي، بل تمتد في البنى المؤسسية وسياساتها، والأغراض وقيمتها، والمشاعر والنصوص والألفاظ أيضاً، ودلالاتها، وثالثاً: أن كلتيهما تمثل مستوى من مستويات المعيارية الاجتماعية التي على ضوئها يتحقق الكثير من العمليات والتفاعلات الاجتماعية، مثل الاختيار، والقبول، والتمييز، وتوزيع القوة، والرمزية الاجتماعية.[3]

وينطلق التحليل من فكرة رئيسية ترى أن موقع المعلمة في المجتمع محكوم ومشروط بواقع مهنتها كمعلمة من جهة، وبحقيقية تصنيفها كنوع اجتماعي من جهة أخرى، وأن هذا الموقع لا يمكن فهمه دون فهم موقع المجتمع نفسه في المعلمة كفرد اجتماعي، وفي التحليل القادم ستعمل القراءة التحليلية على تحليل تلك العلاقة الجدلية بين المجتمع كسياق لتشكل المعلمة وتحقق فعلها من جهة، والمجتمع كمكون اجتماعي لبنيتها الذاتية من جهة أخرى؛ أي المجتمع كسياق خارجي يحيطها وكمضمون داخلي يشكلها.

ولكن لكي تكتمل الصورة، لا بد من رؤية المعلمة في المجتمع كموقع، فالمجتمع ليس حالة طبيعية كاملة التشكل والانسجام، فهو أيضاً ظاهرة ونسيج تاريخي من حيث الديناميكية، واجتماعي ثقافي سياسي من حيث البنية، ولذلك فوجود المعلمة مرتبط بفهمها وفعلها ودورها، وهذا الدور يعكس فاعليتها وتأثيرها الاجتماعي، كما يعكس تورطها وتطبيعها وفرض القبول عليها.

فالمعلمات يمارسن مهنة التعليم، بوصفها نسقاً اجتماعياً سياسياً فرض عليهن، وتشكلن وظيفياً في سياق تشكل اجتماعي في جوهره هو تشكل سياسي مؤسساتي محكوم بمعايير وشروط خارج حدود ذواتهن وأحلامهن ورغباتهن، وفي ضوء هذا الفهم، يمكن فحص تلك العلاقة بين مهنة الحلم المتخيلة السابقة التي أجهضت، والمهنة الحقيقية التي تمارس بمخيال المهنة السابقة. بمعنى آخر، يمكننا التساؤل حول العلاقة بين مهنة الحلم ومهنة الواقع، لنكتشف تأثير المهنة المتخيلة على مخيال المهنة الحقيقية. وكأننا نبحث عن كيف تعلم المعلمات التي كن يحلمن أن يكن سفيرات ومحاميات؟ وهذا هو المركز الذي كنا نتغيا الوصول إليه من فكرة كتابة قصص المعلمات. اليوم نحن أمام مدرسة حلمت معلماتها أن يكن سفيرات ومضيفات وحاميات ومختصات في الإدارة، كيف يكون شكل مدرسة معلماتها مضيفات وسفيرات ومحاميات وإداريات؟ كيف تعلم المعلمة التي حلمت أن تكون سفيرة أو مضيفة أو محامية يوماً؟ هل تعلم طالباتها كمضيفة؟ وهل تنظر لدورها كدور سفيرة أو محامية؟

فالمعلمة التي يحكمها الدور وليس الوظيفة، وتهتم بالكينونة كيف ترى الوظيفة؟ كيف تمارسها؟ في سنوات الأحلام لم نكن نبحث عن وظيفة، كنا نبحث عن دور، هذا ما تقوله رنا، وتؤكده آلاء، «لم أكن أبحث عن وظيفة كنت أبحث عما أريد أن أكون»، وكذلك هنادي «ليس كل ما يتمناه المرء يدركه»، هذه حقيقة لا يمكننا التغاضي عنها، وهي حقيقة تواجه الأغلبية، فمن منا حقق أحلام طفولته، أو بقيت كما هي؟ من منا لم يرسم طريقاً غير الذي وصل إليه الآن؟ هذه حقيقة، لا يوجد مخلوق راض عن حاله تماماً، وليس في هذا الكون بأسره، من حقق كل ما تمنّاه وحلم به.

وحتى منال التي تتشبث بحلمها؛ حلمها أن تكون معلمة، وتقول: «لو لم أكن معلمة لوددت أن أكون معلمة». فحلمها أن تكون معلمة، ذلك

الحلم الذي تشكل ضد المعلمة التي ظلمتها، وفي التماثل مع المعلمة التي رأت فيها تميزها وتفوقها وساعدتها على تحقيق ذاتها، ذلك الحلم الذي تشكل أيضاً في سياق صراعية اجتماعية بين معلمتين ونموذجين قيمين وتربويين، هذا الحلم كيف يؤثر على تعليم المعلمة التي تمارس التعليم كحلم ومهنة ونظرية معاً؟

كذلك نوف التي تنظر لمحطات حياتها، وترى التنقلات، وتعيد تلمس القطع التي ركبت وجودها وحقيقتها، المعلمة تكتب ذاتها وتفكر فيها معاً، تحاول فهم كيف تشكلت ومن أي قطع؟ فهي منذ البدء تطرح الكينونة وصورتها، وتكتب تاريخها مع ثلاث معلمات كنماذج أثرن في حياتها، وتركن بصمة خاصة في مسيرتها، وكن النموذج الأقوى.

ومن قصتها يمكننا أن نستكشف بعض الصفات التي تجعل المعلم أو المعلمة يؤثر على طلابه بشخصيته، ويكون جسده وكينونته وسلوكه مادة تعلم حية، فالمعلمة تعود إلى الروضة وتتذكر «على تلك الطاولة الخشبية اجتمعنا، نلعب، ونمرح، ونضحك بين صيحات هنا وهناك»، وكأن المعلمة هنا تكتب بعض المعايير التربوية: الحرية في الصياح والضحك، وترى أن ما يبقى خالداً في الذاكرة هو الأجواء الفرحة والتعلم عبر اللعب والصخب والفعل الجماعي، وهذا ما تعود لتؤكد بعضه، فتتذكر معلمتي مادتي العلوم والتربية الإسلامية، وهذا يؤكد أن الدور الأهم هو للمعلم وشخصيته، وليس للمادة المنهاجية أو موضوعاتها، فالمسافة كبيرة بين العلوم والتربية الإسلامية من حيث المجال والمحتوى، ولكن هنا ما جمعهما هو شخصية معلمة تتسم بالمرح، والعطاء، وتبسيط العمليات، ووضوحها، وطرح الأفكار والأشياء بأسلوب قوي وعميق، وأهم ما كان يجذبها توظيف القصص والفنون، وعدم التمييز بين الطالبات، وتوفير الدعم والمساندة للجميع.

نوف تعجب بمعلمتها، وترى فيها مثالاً يحتذى، وتميل إلى مهنة التعليم، كتجسيد لفكرة العطاء، ولكن عندما تصل الجامعة، فإنها تقرر، بناء على معطيات الواقع، وعلى ممكنات التخصص، وترى أنها يمكن أن تحقق نموذج مدرسة التربية الإسلامية، ألا وهو النموذج الذي يجسد فكرة العطاء من خلال تخصص جوهره علمي عملياتي؛ ألا وهو علم إدارة الأعمال، وتقول إنها اختارته «ووقع اختياري على دراسة إدارة الأعمال، وذلك لارتباط هذا التخصص بحياتنا اليومية والعملية والمعاملات الشخصية». لقد حلمت بالتدريس، ولكن الواقع أيضاً ومعاييره وجهها إلى تخصص آخر أكثر ارتباطاً حسب تعبيرها بحياتنا اليومية والعملية والمعاملات الشخصية.

ولرؤية كيف تؤثر الأحلام المهنية للمعلمة على ممارستها لوظيفتها المهنية، يمكننا أن نحلل بعض النماذج، فهنادي مثلاً المعلمة التي حلمت أن تكون محامية، من البداية تعلن أن الإنسان لا يحقق كل ما يتمناه، وأنها لم تفكر أن تكون معلمة أبداً، ومعلمة للتربية الرياضية على وجه الخصوص، وترى أنها تعبت واجتهدت كي تكون شيئاً آخر، مع أنها كانت تشارك وتحرص على المشاركة والفوز في المباريات الرياضية.

المعلمة تؤكد صلتها بالرياضة كممارسة وكفوز، وتنفي أن تكون حلمها لكي تكون معلمة رياضة، وذلك لأجل حلمها الحقيقي؛ ألا وهو المحاماة. ثم تضيف أنها حلمت، وعندما لم تتمكن من حلمها، ووضِعت على المحك، قررت أن لا تكون فاشلة، ثم اتهمت أنها تضيع أربع سنوات في تخصص الرياضة، فترد «عملت وكان هدفي الدفاع عن الاتهامات» ثم تمارس مهنتها وهدفها «عدم حرمان أي طالبة من حقها في حصة الرياضة»، وتشخص وضع التربية الرياضية في المدارس، وتقول إنها تهتم «بالكأس والفوز ولا تهتم بالطلاب ولا بالتربية الرياضية».

هنادي تمارس المحاماة وتستخدم مصطلحاتها وأسلوبها في ممارسة مهنة التعليم وفي توصيفها، فهي تترافع عن نفسها وتحكم لنفسها بأن لا تفشل، تصدر الحكم وتعمل أربع سنوات لتحقيقه، وتعمل ضد الاتّهام، اتّهامها باللعب، واتّهام تخصصها بعدم الأهمية، هنادي تترافع عن نفسها وعن تخصصها، وفي مواجهة الاتّهام تتبنى التربية الرياضية كممارسة ومهنة ومبدأ، وتنتقل بها إلى كونها قضية فتشخص حال المدارس بلغة المحامي، وتتهم أيضاً النظام بأنه يرى الكأس والفوز ولا يرى الطالب، وتضيف «كم هو فقير طالبنا بالمعلومات الرياضية، ولكني لا أضع اللوم على الطالب، ولكن المعلم والمدير يتحملان المسؤولية». تقرأ واقع التربية الرياضية، وتبرئ الطلاب، وتحكم بالمسؤولية على المعلم والمدير.

وتضيف:

> «وأنا كمعلمة رياضة، لا أسمح لأحد أن يتعدى على الحصة أو على الطلبة، فهي حصة يتيمة، يحق للطلبة اللعب فيها وتفريغ طاقاتهم واكتشاف مواهبهم، وهذا ما أحاول أن أعمله، وهو المحافظة على حقهم ومشاركتهم فرحتهم في ساحة الملعب».

المعلمة التي حلمت أن تكون محامية، تمارس المحاماة في داخل مهنتها كمعلمة للتربية الرياضية، تشخص وتنحاز، ترافع وتحلل وتفند الأوضاع، تبرئ وتتهم، وأخيراً تحكم بحق الطلاب وتدافع عنه بوصفه جزءاً من العدالة. إذاً المحاماة تمتد في التعليم كحلم وكخيال، كمبدأ ورؤية، إنه الحلم الذي يمتد والمخيال الذي يقود.

وهذا ما تؤكده آلاء:

«نعم، سأدرس اللغة العربية، اللغة العربية كلغة وثقافة وعلم وتاريخ وهوية وفن، سأكون سفيرة للغتي العربية التي أعتز بها أمام العالم، سأصبح سفيرة للغة القرآن، سأعلمها للطلاب ولأولادي، سأزرع حب اللغة في داخلهم، وأطمح أن أجعلها نافذة يَرون من خلالها العالم، ويرانا العالم من خلالها».

فالمعلمة التي كانت تحلم أن تكون سفيرة وطن، هي الآن سفيرة لغة، المعلمة التي كانت تريد أن تكون سفيرة سياسية لفلسطين في أمريكا، هي اليوم سفيرة ثقافية للغة العربية في صفها، كانت تريد أن تري الأمريكان فلسطين، وتكشف معاناتها وحلم شعبها، هي اليوم تحاول أن تري طلابها العالم من خلال لغتهم وثقافتهم، إنها مهمة كبيرة فعلاً تحتاج إلى معلمة في وظيفة سفيرة، لكي تكشف واقع اللغة العربية ومعاناتها الواقعية والمنهاجية وتقدمها كلغة ثقافة وحرية.

وهذه القصص وتحليلها، يجعلاننا نلاحظ كيف تظهر علاقة الماضي بالحاضر عبر السرد، وكيف تعيد المعلمات بناء العلاقات بين الزمن ومكوناته، بين الماضي المسرود في علاقته مع المهنة كواقع حاضر، ومع المستقبل بوصفه مشروع تكونهن المهني المستمر، أي كيف يؤثر الماضي على الحاضر، وهذا يعطينا صورة عن تأثير حمولات الماضي على الحاضر والعكس كذلك، أي كيف نسرد الماضي في ضوء الحاضر وانشغالاته؟

وكذلك علاقات الحلم بالواقع من جهة، وعلاقة الحلم بواقع المهنة كمجال لتحقيق الأحلام من جهة أخرى، وقدرة هذه الأحلام على البقاء، وتحقيق نفسها عبر وظيفة أخرى، فالمعلمة المحامية أو السفيرة أو المضيفة أو مديرة الأعمال، أو المعلمة صاحبة نظرية التعليم المبني على المحبة، كيف تقوم بتحقيق حلمها في وظيفتها الحقيقية كمعلمة؟ أي كيف تعيد إنتاج خيال مهنة التعليم في ضوء وظيفة متخيلة؟ وكيف تحقق حلمها السابق في وظيفة أخرى كحلم ممتد؟ ما يعني ضرورة هذا الفهم لأي فعل تطويري للتعليم، فأي فعل تطوير للتعليم يجب أن ينطلق من تطوير المعلمة كفاعل اجتماعي لعملية التعليم، وتطوير أي فعل مرهون بتطوير سياقه من جهة، وتطوير فاعليه من جهة ثانية، وهذا يعني أن تطوير التعليم المشروط بتطوير المعلمات كفاعلات للتعليم، يجب أن يعمل على مفاهيم الموقع والدور، موقع المجتمع في المعلمة، وموقع المعلمة في المجتمع، ودور كل منهما في الآخر؛ أي بناء عملية التطوير بوصفها عملية نقدية تحويلية لفهم مكانة كل من مفاهيم المهنة والنوع في البناء الاجتماعي، وفي النسق الثقافي عامة، وفي النسق التربوي خاصة.

مدير مسار اللغات والعلوم الاجتماعية/مركز القطان

الهوامش:

1 هذا ما تقوله دورسيلا كورنيل، المنظرة النسوية، وتستشهد به ديان إيلام، في مقالتها: «النسوية والتفكيك»، ترجمة: شعبان مكاوي، المنشورة في كتاب: **القرن العشرون .. المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية**، تحرير: ك. نلووف وآخرون، (2005) القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ص 335.

2 المرجع السابق، ص329.

3 انظر: إيمي. إس. وارتون (2014). **علم اجتماع النوع، مقدمة في النظرية والبحث**، ترجمة: هاني خميس أحمد عبده، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ص 38-42.

جانب من أحد لقاءات الدراما في التعليم التى نظمها مركز القطان للبحث والتطوير التربوي العام الحالي.